النفس الإنسانية بين البناء والهدم

رؤية تحليلية في ضوء القرآن والسنة

د. أحمد حسين جاسم الصفار
أ كاديمي متقاعد

The human soul between construction and demolition

Analytical vision in the light of the Qur'an and Sunnah

Dr. Ahmed Hosein Jasem Al-Saffar
Retired academic
Email: ahalsaffar@hotmail.com

ملخص البحث

يستعرض هذا البحث المسألة العقائدية في دائرة هدف الإيجاد من خلق الإنسان وتدرجه في العوالم إلى الخلق المادي ، ثم ما دور الإنسان في حيز تلك الدائرة، وهو عالم المُلك المنحصر من نزول الانسان من رحم أمه الى موته ، ودوره بعلاقته مع ما كان عليه في عالم العقل وما يصطلح عليه بقوسي الصعود والنزول . واستعراض تلك العلاقة عبر دلالة الآيتين: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّـآ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾، و ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلَاقِيهِ﴾. ودور الإنسان عبر حياته في حركة التأريخ. وانشعاب الـ(إنّا) في الآية ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّـآ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾، الى (إنّية) إلهية رسالية (معنوية) ، والى دنيوية مادية ، والكدح في ضوئها ينقسم على كدح أخروي وكدح دنيوي.

الكلمات المفتاحية : النفس الإنسانية،القرآن،السنة.

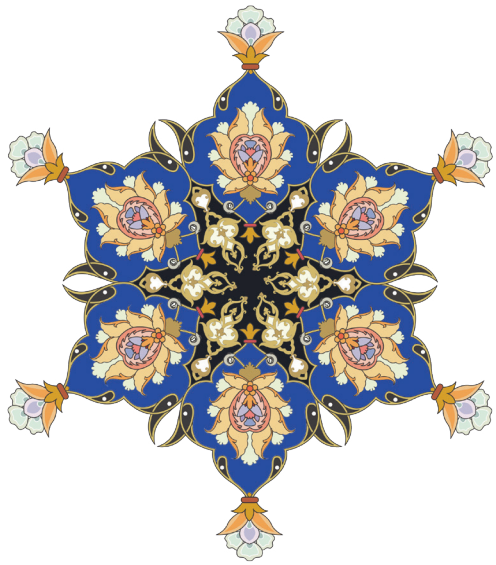

Abstract

This research deals with a review of the ideological circle of Man creation/existence and his gradual transformation in creation into the materialistic dimension to his role within the mundane realm the worldly dimension from the advent of Man from the womb of his mother (being born) to his last breath (death).

This journey indulges Man's relationship within the intellectual realm firstly which is also described as the arcs of Ascend and Descend as we will further explore this via these two Versus (O man! You are laboring towards your Lord and you will meet Him) and (To Allah we belong and to Him we are returning) and secondly the role of the Man during his life in the movement of history the branching of "we" in the verse (O man! You are laboring towards your Lord and you will meet Him) refer to (His) existence of the divine missionary and the mundane or materialist one and the highlighted perseverance also divides into two sections hereafter and mundane one.

Keywords: the human soul, the Qur'an, the Sunnah.

المقدمة

كلّ بناء يكتنز في كيانه عناصر الضعف ، والهدم مالم تُنجز عليه عناصر الترميم والصيانة المستمرين معه أبدا، هذا الكلام ينطبق على حياتنا اليومية بكل أبعادها الروحية، والمعنوية، والمادية وغيرها ، ولو قدرلأمهر المهندسين أنْ يشيّد بناء فمن المنطق ألا يشيده على أرض لا تتحمله ، أو يبنيه على سفح واد تمرّ فيه سيول جارفة، ومن غير المعقول ألا ينصح بإدامة البناء من صيانة وترميم . فالمهندس البارع ينتج بناء بارعا ، والرسام الماهر يرسم بريشته أجمل اللوحات ؛ وإلا ما كان ماهرا والجراح الحاذق ذو الأنامل السحرية ما كان مشهورا وجراحا ماهرا إلاّ ورأينا نتائج عملياته الجراحية على المرضى الميؤوس من علاجهم، والخالق ما كان خالقا[١] ولا فاطرا [٢] ، ولا بديعا [٣]، ولا مبدأ [٤] ولا منشأ [٥]، ولا موجدا[٦] ؛ إلّا بعدما رأينا خلقه وإلاّ كان ادعاء لا يغني، ﴿هَـٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِ﴾ [سورة لقمان: آية ١١]، وتيقنّا أنّه الخالق لكل شيء وفاطره: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لا إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [سورة الأنعام: آية ١٠٢].

(١) الخلق: هو إيجاد شيء على كيفيّة مخصوصة وبما أوجبته ارادته واقتضته الحكمة، وقيل هو التقدير، راجع: التحقيق في كلمات القرآن الكريم، حسن مصطفوي، ج٣، ص ١١٥.

(٢) الفطر: هو إحداث تحوّل يوجب نقض الحالة الأوّليّة، كالتحوّلات العارضة المحدثة بعد الخلق الأوّل، وهذا المعنى يصدق على التقدير والخلق والإحداث والإبداع، راجع: التحقيق في كلمات القرآن الكريم، حسن مصطفوي، ج٩، ص ١١٢، قال تعالى: ﴿قُلْ أَ غَيْرَ اللهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فاطِرِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾ [سورة الأنعام: آية ١٤].

(٣) بدع: هو إيجاد الشيء وانشاؤه على خصوصيّة لم يسبقه فيها غيره، راجع: التحقيق في كلمات القرآن الكريم، حسن مصطفوي، ج١، ص ٢٣٠، قال تعالى: ﴿بَدِيعُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾ [سورة البقرة: آية ١١٧].

(٤) الإبداء: هو الإنشاء والإيجاد ابتداء وفي أوّل مرّة، راجع: التحقيق في كلمات القرآن الكريم، حسن مصطفوي، ج١، ص ٢٣٠، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [سورة الروم: آية ١١].

(٥) الإنشاء: هو إحداث أمر مستمرّ، أو حدوثه في استمراره ومع البقاء، راجع: التحقيق في كلمات القرآن الكريم، حسن مصطفوي، ج١٢، ص ١١٨، قال تعالى: ﴿وَنُنْشِئَكُمْ فِي ما لا تَعْلَمُونَ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولى فَلَوْ لا تَذَكَّرُونَ﴾ [سورة الواقعة: آية ٦٢].

(٦) الإِيْجَادُ: جعل شيء واجدا ومدركا، فهو مَوْجُودٌ بالنسبة الى الموجد موجد، وواجد بالنسبة الى شيء يدركه، راجع: التحقيق في كلمات القرآن الكريم، حسن مصطفوي، ج١٣، ص ٣٤.

دائرة الإيجاد

الله سبحانه وتعالى هو الكمال المطلق ((فأوجب أنْ يكون مجعوله الأول الصادر عن نفس ذاته بذاته، التي هي عين مرتبة ذاته قبل سائر المجعولات، قبلية بالذات بحسب المرتبة العقلية ، أفضل ما يبلغه ادراك العقول والاذهان ، وأشرف ما وسعه طباع عالم الامكان، وأنْ تكون أولى من مراتب مجعولاته ومعلولاته التي هي من جملة الموجودات في نظام الوجود ، أشرف المراتب وأفضلها وأكملها وأجملها ، فإذن وجب أنْ يكون أولى مراتب نظام الوجود عالم الأنوار العقلية ، وأنْ يكون العقل الأول من بينها بخصوصية جوهر ذاته هو المجعول الاول لا غير، مرتبة عالم العقول النورية المفارقة ولها عرض واسع في الكمال، ومن ثم كان العقل الأول نور نفس خاتم النبوة، لما بينهما من أتم المناسبة والموازاة، وأشد المشابهة والمضاهاة بحسب الدرجة. قال ﷺ في حديث : « أول ما خلق الله العقل »، وفي حديث آخر: أول ما خلق الله نوري. فالعقل الأول نور خاتم الانبياء، والعقل الثاني نور سيد الأوصياء، بل العقل الأول نورهما معا ؛ لأنهما كنفس واحدة. قال ﷺ: « أنا وعلي من نور واحد » من العقل الاول الى العقل الاخير، وثانيتها: مرتبة عالم النفوس المجردة السماوية، وثالثتها: مرتبة عالم النفوس المنطبعة السماوية على عرض واسع باختلاف درجات الكمال، فالوجود يبتدأ منه عز وجل متنازلا في المراتب المترتبة، من الشرف الى الخسة، ومن الكمال الى النقص، ومن المستحيل أنْ يتمادى الى نهاية)) [1]

ويختار الإنسان أي مرتبة يريد حسب ما يريد عمله في الحياة الدنيا ؛ ليرجع اليها إنْ كان جادا في كدحه لأجل تحقيق الصعود الى ما عاهد الله عليه يوم الإشهاد وأخذ الميثاق: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ﴾ [سورة الأعراف: آية ١٧٢].

وقد صرّح القرآن الكريم عن مراحل خلق الإنسان وإنّه كيف خلق؟ ، ومن أيّ شيء خلق؟ ، فعملية خلق الإنسان قد مرّت بثلاث مراحل كما رسمها القرآن الكريم،

(١) التعليقة على اختيار معرفة الرّجال، محمّد باقر الحسيني الاسترآبادي، مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، قم، ١٤٠٤ه. ج١، ص ٢٢٧-٢٣٢.

وهي: ((المرحلة الأُولى: التراب المتحوّل: وهي: ١. التراب [١]، ٢. الطين [٢] ، ٣.الطين اللازب [٣]، ٤. صلصال من حمأ مسنون[٤]، ٥. سلالة من طين[٥]، ٦. صلصال كالفخار[٦]. إنّ مجموع هذه الحالات الست المختلفة ترجع في حقيقتها إلى شيء واحد، وإنّ المادة الأساسية في كلّ هذه الحالات هي مادة واحدة.

المرحلة الثانية : مرحلة التصوير: جعل القرآن الكريم مرحلة تصوير آدم عليه السلام هي المرحلة الثانية من مراحل خلق الإنسان حيث قال سبحانه : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْناكُمْ ثُمَّ صَوَّرناكُمْ ثُمَّ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إلاّ إبْليسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السّاجِدينَ﴾ [سورة الأعراف: آية ١١] ، وإنّ مفهوم التصوير هو نفس مفهوم التسوية الذي ورد في آية أُخرى حيث قال تعالى: ﴿وَ إذْ قالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إنّي خالِقٌ بَشَراً مِنْ صَلْصال مِنْ حمإ مَسْنُون ﴿٢٨﴾ فَإذا سَوَّيْتُهُ وَ نَفَخْتُ فيهِ مِنْ رُوحي فَقَعُوا لَهُ ساجِدينَ﴾ [سورة الحجر: آية ٢٨-٢٩]

المرحلة الثالثة : مرحلة نفخ الروح : عملية نفخ [٧] الروح ، أو النفس في البدن [٨]،

(١) ﴿إنّ مَثَلَ عِيسى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُراب ثُمَّ قالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [سورة آل عمران: آية ٥٩].
(٢) ﴿الَّذي أحْسَنَ كُلَّ شيَء خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإنْسانِ مِنْ طين﴾ [سورة السجدة:٧ آية] .
(٣) ﴿إنّا خَلَقْناهُمْ مِنْ طين لازِب﴾ [سورة الصافات: آية ١١].
(٤) ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنْسانَ مِنْ صَلْصال مِنْ حَمَإٍ مَسْنُون﴾ [سورة الحجر: آية ٢٦].
(٥) ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنْسانَ مِنْ سُلالَة مِنْ طين﴾ [سورة المؤمنون: آية ١٢].
(٦) ﴿خَلَقَ الإنْسانَ مِنْ صَلْصال كَالفَخّار﴾ [سورة الرحمن: آية ١٤].
(٧) ﴿فإذا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحي فَقَعُوا لَهُ ساجِدينَ﴾ [سورة الحجر: آية ٢٩].
(٨) تعريف الروح والنفس فلسفياً يختلف عن تعريفهما عقائدياً (كلامياً) بل تتنوع التعريفات بحسب المدارس الفكرية المنشعبة عن علمي الكلام، والفلسفة. فللمشائين من الفلاسفة تعريف يغاير ما عند الاشراقيين ويختلف عند الحكمة المتعالية، ولعلماء الكلام تعاريف متفاوتة بحسب مبنى كل طائفة منهم إذ المعتزلة لهم تعريف، وللأشاعرة تعريف، وللإمامية تعريف، وللإسماعيلية تعريف، فضلاً عن اختلاف الآراء في منشأ كل منهما. والروح: ماهية بسيطة فوق الإدراك، جزء من الذوات المقدسة العالية. لذلك كل المخلوقات لا تحمل روحا، وإنما أنفسا متعددة، سواء أكانت نفس شهوانية، أو غذائية، أو عدوانية غضبية، أو إيجابية مطمئنة، وما إلى ذلك، والأنفس أنواع نباتية وحيوانية وهي على مراتب ناطقة، وغيرها كما أشار إليه أمير المؤمنين عليه السلام حينما سأله الأعرابي عن النفس فقال عليه السلام: «أي الأنفس تسأل؟ فقال: يا مولاي هل النفس أنفس عديدة؟ فقال: نفس نامية نباتية، وحسية حيوانية، وناطقة قدسية، وإلهية كلية ملكوتيه. وفي حديث آخر يصف أمير المؤمنين ع هذه النفس الإلهية فيقول: والكلية الالهية لها خمس قوى: بقاء في فناء، ونعيم في شقاء، وعز في ذل، وغناء في فقر،

وهذه المرحلة انماز الإنسان عن غيره وجعلت له أفضلية على غيره ؛ لأنّ هذه المرحلة جعلت منه موجوداً مركباً من عدّة أبعاد، فمن جهة هو موجود متعقّل مفكّر يمتلك فكراً وعقلاً يوصله إلى مصاف الملائكة، ومن جهة أُخرى جُهّز بمجموعة من الغرائز والميول النفسية التي إنْ لم تخضع للسيطرة والموازنة ، والرقابة العقلية فأنها تجمح به لتلقيه في قعر الذلّ والسقوط والانحدار .)) [1]

ولعل رسول الله ﷺ بيّن لنا هذه المسألة بقوله : ((خلق الله الخلق وقضى القضية، وأخذ ميثاق النبيين وعرشه على الماء، فأخذ أهل اليمين بيمينه، وأخذ أهل الشمال بيده الأخرى وكلتا يد الرحمن يمين فقال: يا أصحاب اليمين فاستجابوا له فقالوا: لبيك ربنا، وسعديك. قال: ألست بربكم؟ قالوا: بلى قال: يا أصحاب الشمال فاستجابوا له فقالوا لبيك ربنا وسعديك قال: ﴿أَلَسْت بربكم قَالُوا بلَى﴾[2]. فخلط بعضهم ببعض فقال قائل منهم: رب لم خلطت بيننا؟ قال: ﴿وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ﴾[3] ﴿أَن تَقُولُوا

وصبر في بلاء، ولها خاصيتان: الرضا والتسليم، وهذه التي مبدؤها من الله وإليه تعود، وقال الله تعالى: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِ﴾ [سورة الحجر: آية ٢٩]، وقال تعالى: ﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً﴾ [سورة الفجر: آية ٢٨]، والعقل وسط الكل. أنظر: شرح الأسماء الحسنى، حاج ملا هادي السبزواري (ت ١٢٨٩ هـ)، منشورات مكتبة بصيرتي، قم، ج٢، ص ٤٥؛ البحار: ج ٥٨، ص ٨٥ باب حقيقة النفس.

والنفس تنالها الموت والفناء والتغيير، قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [سورة العنكبوت: آية ٥٧]. الروح لا تنالها أي موت أو تغيير أو أي طارئ، لأنها فوق هذه الكينونات والماهيات، ودون الوجود الإلهي الأحدي الصمدي، وإنما هي متعلقة مع الجهة الإلهية ومرتبطة به، قال تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [سورة الحجر: آية ٢٨]. وهل يحمل الإنسان روحا؟ كلا، فالروح لا تجتمع الا مع الإيمان المحض الحقيقي والعقل السليم الصحيح، وإنما سينالها فيما لو استقام على الصراط المستقيم، لقابليته على حملها. عن الباقر عليه السلام في تفسير قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾ [سورة الزمر: آية ٤٢]، قال: «ما من أحد ينام إلا عرجت نفسه إلى السماء وبقيت روحه في بدنه وصار بينهما سبب كشعاع الشمس، فإن أذن الله في قبض روح أجابت الروح النفس. وإن أذن الله في رد الروح أجابت النفس الروح..» أنظر: الميزان في تفسير القرآن، محمد حسين الطباطبائي، ج١٧، ص ٢٧٦.

(١) الفكر الخالد في بيان العقائد، جعفر السبحاني، مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام، ج٢، ص ٣٩.
(٢) سورة الأعراف: آية ١٧٢.
(٣) سورة المؤمنون: آية ٦٣.

يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ﴾[1] ثم ردهم في صلب آدم فأهل الجنة أهلها وأهل النار أهلها. فقال قائل: يا رسول الله فما الأعمال؟ قال: يعمل كل قوم لمنازلهم. فقال عمر بن الخطاب: إذاً نجتهد))[2] . وعلق الطباطبائي[3] قائلا: (يعمل كل قوم لمنازلهم) فيقول: أي إن كل واحد من المنزلين يحتاج إلى أعمال تناسبه في الدنيا فإنْ كان العامل من أهل الجنة عمل الخير لا محالة، وإنْ كان من أهل النار عمل الشر لا محالة، والدعوة إلى الجنة وعمل الخير ؛ لأنّ عمل الخير يعين منزله في الجنة، وأنّ عمل الشر يعين منزله في النار لا محالة كما قال تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَٱسْتَبِقُواْ ٱلْخَيْرَاتِ﴾ [سورة البقرة: آية ١٤٨].

ومن هنا يتقلب في عالم الملكوت (عالم الغيب) حتى يظهر قوس الإيجاد الى عالم الملك والشهادة وهو قوس قصير[4] مقارنة بدائرة الإيجاد فيبينها القرآن الكريم قائلا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُواْ أَشُدَّكُمْ وَمِنكُمْ مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُمْ مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلاَ يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً﴾ [سورة الحج: آية ٥] ، و»بموته وفنائه ثم هلاكه»[5] ينتهي قوس المُلك (عالم الشهادة) الظاهر للناس وتبدأ بعدها النفختان ، والنشر والحشر ، والحساب وكلّ يومئذ يرجع الى مرتبته التي اختارها لنفسه، ويعتمد كل ذلك على فرصة كدحه في قوس المُلك. وفي تلك الفترة يرسم لنفسه معراج الصعود الى مرتبته.

لم يتركه سبحانه وتعالى هائما على وجهه محتارا لا يدري ما يفعل، بل هداه، وأرشده،

(١) سورة الأعراف: آية ١٧٢.

(٢) الدر المنثور، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (ت: ٩١١هـ)، دار الفكر، بيروت، ج٣، ص ٦٠٣.

(٣) الميزان في تفسير القرآن، محمد حسين الطباطبائي، ج٨، ص ٣٢٨.

(٤) قوس الملك يقصر ويتسع حسب الإنسان وارتباطه بالمولى عز وجل ويخبرنا القرآن الكريم أن الملكوت قد كشف لنبي الله إبراهيم فاتسع عنده قوس الملك أكبر فقال سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾ [سورة الأنعام: آية ٧٥]، ويتسع أكبر فتنفتح دائرة الإيجاد بأقصى انفراجها للرسول الأكرم ص، قال تعالى: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ﴾ [سورة النجم: آية ١١]، والروايات متظافرة في قصة ليلة معراج النبي ﷺ.

(٥) يراجع بحثنا: الصورة القرآنية لانهيار الموجودات، الدكتور أحمد الصفار، المصباح، مجلة علمية فصلية محكمة، العتبة الحسينية المقدسة، العدد ٣٨، السنة العاشرة، صيف ٢٠١٩، ص١٥.

وفطره على صفاته سبحانه وتعالى كاملا متكاملا: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [سورة طه: آية ٥٠]، ((والظاهر أنّ المراد هداية كل شيء إلى مطلوبه؛ ومطلوبه هو الغاية التي يرتبط بها وجوده وينتهي إليها، والمطلوب هو مطلوبه من جهة خلقه الذي اعطيه، ومعنى هدايته له إليها تسييره نحوها. كل ذلك بمناسبة البعض للبعض .)) [(١)]، فكان من فيض الله عليه -وهي اختيارية له سبحانه وليست قهرية أو انتزاعية- أنّه كان صبغة الله: ﴿صِبۡغَةَ ٱللَّهِۖ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبۡغَةٗ وَنَحۡنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ﴾ [سورة البقرة: آية ١٣٨] فكانت هي فطرة الله تعالى وقيل: ((تطهير الله)) [(٢)]، و((هي صبغ المؤمنين بالولاية في الميثاق)) [(٣)]، وفطرة الله تعالى: ﴿فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ﴾ [سورة الروم: آية ٣٠]، وأنّه سبحانه وتعالى ((فطرهم على التوحيد عند الميثاق على معرفته انّه ربّهم قال لولا ذلك لم يعلموا من ربّهم ولا من رازقهم)) [(٤)]، فهداه. ((فيؤول المعنى إلى إلقائه الرابطة بين كل شيء بما جهّز به في وجوده من القوى والآلات، وبين آثاره التي تنتهي به إلى غاية وجوده؛ فالجنين من الإنسان مثلاً وهو نطفة مصورة بصورته مجهز في نفسه بقوى، وأعضاء تناسب من الأفعال، والآثار ما ينتهي به إلى الإنسان الكامل في نفسه، وبدنه . فقد أعطيت النطفة الإنسانية بما لها من الاستعداد خلقها الذي يخصها، وهو الوجود الخاص بالإنسان ثم هُديت، وسُيّرت بما جُهزت به من القوى، والأعضاء نحو مطلوبها، وهو غاية الوجود الإنساني والكمال الأخير الذي يختص به هذا النوع)) [(٥)]. وجنّبه المستقبحات العقلية وفعل المستحسنات العقلية، وقال الصادق عليه السلام: في تفسيره للآية: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوۡمَۢا بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰهُمۡ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾ [سورة التوبة: آية ١١٥]، قال: ((حتّى يعرّفهم ما يُرضيه وما يُسخطه)) [(٦)]. يعني أنّ المراد بإلهام التقوى بيان ما يجب فعله ، والإتيان به، وبإلهام

(١) الميزان في تفسير القرآن، محمد حسين الطباطبائي، ج١٤، ص ١٦٦.
(٢) التبيان في تفسير القرآن، الشيخ الطوسي، احياء التراث العربي، بيروت، ج١، ص ٤٨٥.
(٣) عن الصادق عليه السلام: التفسير الصافي، الفيض الكاشاني (ت ١٠٩١هـ)، مؤسسة الهادي، قم، ١٤١٦ هـ، ج١، ص ١٩٣.
(٤) عن الباقر عليه السلام: بحار الأنوار، العلامة المجلسي (ت ١١١١هـ)، ١٩٨٣، ج، ٦٤، ص ٤٤.
(٥) الميزان في تفسير القرآن، محمد حسين الطباطبائي، ج١٤، ص ١٦٧.
(٦) الأصول من الكافي، ثقة الاسلام أبي جعفر محمد بن يعقوب بن إسحاق الكليني الرازي (ت ٣٢٨ / ٣٢٩ هـ)، الطبعة الثالثة ١٣٨٨، دار الكتب الاسلامية مرتضى آخوندي، طهران،

الفجور بيان ما يجب الكفّ عنه وتركه، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً﴾ [سورة الإنسان: آية ٣]. ((إنّ السبيل المهدي إليه سبيل اختياري وإنّ الشكر، والكفر اللذين يترتبان على الهداية المذكورة واقعان في مستقر الاختيار للإنسان أنْ يتلبس بأيهما شاء من غير إكراه واجبار)) [١]، وقال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ﴾ [سورة الحجرات: آية ٧] أنظر للفظي (حبّب) وليس وّد و(كرّه) وليس بغّض، أو غيرهما من الألفاظ [٢]، فهما جزءان من بنائه الروحي والنفسي والفكري.

فلا بدّ في تحصيلهم المعرفةَ من بيانه تعالى لهم إيّاها. أي على اللهّ أنْ يبيّن لكلّ أحد، ((ولا ريب في أنّ العقول والأفهام تختلف في معرفة ما بيّن، فبعضها لها قوّة على فهم الجميع، وبعضها على البعض. لأنّه مع عدم خلق أداة تحصل بها المعرفة من دون بيان وعدم البيان، لو كلّف بالمعرفة لزم تكليف ما لا يطاق)) [٣] قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا﴾ [سورة البقرة: آية ٢٨٦]، فأرسل الله اليهم من يعلمهم ويهديهم ، ويريهم الطريق لينهضوا بأنفسهم مجدين ليعملوا ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنْكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَابَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ﴾ [سورة البقرة: آية ١٥١]، فيكونون أمة قد أودع الرسول في قلوبهم علم الكتاب والحكمة، ومزكين بتزكيته، والتزكية هنا التطهير من قذارات القلوب، وتخليصها للعبودية. ولا سبيل لارتباط الأعمال البدنيّة بالأمور الغيبيّة ، والاخلاق النفسيّة الاّ بطريق الوحى.

وتبدأ رحلة الأنسان نحو مسير الصعود [٤] الى الله تعالى للوصول الى المرتبة التي أقرها

ج ١، ص ١٦٣.

(١) الميزان في تفسير القرآن، محمد حسين الطباطبائي، ج٢٠، ص ١٢٢.

(٢) لأن الحب والكره هما في الوجدان وفي الفطرة وأما إذا نزلا على أرض الواقع فالحب العملي هو الود والكره العملي هو البغض والشنئان والحقد وغيرها. كما أن العدل في الوجدان فالقسط هو التطبيق العملي للعدل راجع بحثنا: اللفظ القرآني بين القوة والفعل، الدكتور أحمد الصفار، مجلة صدى القرآن، العتبة الحسينية، العدد ١٤، السنة الرابعة، ٢٠١٩، ص ١٠٣-١٦٥.

(٣) الدرّ المنظوم من كلام المعصوم، علي بن محمّد بن الحسن بن زين الدين العاملي، المعروف بالشيخ علي الكبير، (ت ١١٠٣هـ)، ج١، ص ٦٦٧.

(٤) قوس النزول: العوالم الروحانية والجسمانية، وينال في قوس الصعود: الحس والتعقل والإشراق

الإنسان بالميثاق و﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [سورة الأعراف: آية ٢٩] ((فإن الله سبحانه إذ بدأ خلقهم قضى فيهم أن يتفرقوا فريقين فريقاً يهديهم وفريقاً يضلّون عن الطريق وسيعودون إليه كما بدأهم فريقاً هدى وفريقاً حق عليهم الضلالة بتولي الشياطين؛ فأقسطوا وأخلصوا حتى يكونوا من المهتدين بهداية الله لا الضالين بولاية الشياطين)) [(١)].

المشروع الإلهي

لابد أنْ نتوقف قليلا عند هذه النقطة لنحدد هذا المشروع الذي يكتنف الغيب ، والتسديد والعالمية ، والإخلاص والإيمان والصدق الفعلي والنفسي، ولعلنا نتلمس المشروع الإلهي في الآية الشريفة : ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [سورة المائدة: آية ٥٦] ، فمن يتولى القيام بطاعة الله ورسوله ﷺ ونصرة المؤمنين، ومن يكون ولياً لله ورسوله والمؤمنين: بنصرة دين الله والاخلاص له. وهذه الآية مطابقة تماما للآية: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ﴾ [سورة المائدة: آية ٥٥]، وأنّها تفيد وجوب طاعة الله وطاعة رسوله وطاعة الذين آمنوا، الذين حددهم الحديث الشريف لاستكمال المشروع وديمومته ما دام القرآن قائما بين الناس: ((وَإِنِّي قَدْ تَرَكْتُ فِيكمُ الثَّقَلَيْنِ مَا إِنْ تَمَسَّكْتُم بِهِ لَنْ تَضِلُّوا بَعْدِي: أَحَدُهُما أَكْبَرُ مِنَ الآخَرِ، كِتَابُ الله حَبْلٌ مَمْدُودٌ مِنْ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ، وَعِتْرَتِي أَهْلُ بَيْتِي، وَلَنْ يَتَفَرَّقَا حَتَّى يَرِدَا عَلَيَّ الحَوْضَ، فَانْظُرُوا كَيْفَ تَخْلُفُونِي فِيهِما)) [(٢)]، فلابد من التمسك القوي والولاء الصادق لمن أُمرت بالتمسك بهِ والاخلاص لهُ ؛ لأنّ كمال المشروع الإلهي الذي بإمكان البشرية الاستفادة منه وجني ثماره، والتنعم بمكنون أسراره متقوّم على هذه الولاية والطاعة والاتباع، وهذا ما يجعل القائمون على هذا المشروع يعيشون حالة الصفاء والخلوص والاطمئنان الروحي والنفسي .

ومن بين عناصر هذا المشروع: وضوح الهدف والغاية، ووضوح المبدأ والمنتهى،

والكشف والشهود.

(١) الميزان في تفسير القرآن، محمد حسين الطباطبائي، ج٨، ص ٧٦

(٢) الوصيّة: بحث في تحقيق ألفاظ حديث الثقلين، بدر الدين بن الطيّب كسوبة، النجف،ج ١، ص ٢٥١

ووضوح المنهج القويم والطريق المستقيم، ووضوح موازين الصحة والخطأ ، أو الصواب والخطأ أو الحق والباطل، ووضوح المرجعية في الفكر والعقيدة والعمل والسير والسلوك والأخلاق، ووضوح المثل الأعلى الذي يريد صاحب المشروع أنْ يقتدي به ، ووضوح المشروع من حيث سعة دائرته التي تقبل الآراء المختلفة والمتباينة والمتناقضة والمتباينة، ووضوح التقويم الذاتي والجماعي والرقابة الذاتية والإحسانية التي إنْ لم ترَ الله في مشروعه فالله يراك.

البداية والغاية

البداية والغاية محددتان بالآية الشريفة: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [سورة القرة: آية ١٥٦]، (فإنيّة) العبد ستكون للهِ ومنها إِلَيه رَاجِعٌ. وبين الـ(إنّا) والرجوع هناك حركة دائبة دائمة متصلة يمثلها حرف الجر (إلى) الذي يرسم الحركة الانتقالية من الأرض حيث المُلك الى عالم الغيب ، (عالم الملكوت) حيث المراتب التي رتّب الله الناس عليها حسب أعمالهم في دار الدنيا.

وهنا مكْمن الحديث: فكيف يكون المنطلق بالرجوع الى غايته؟ وكيف ستكون هذه (الإنّا) في الآية ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ لتعود به الـ(إلى) الى نهايته الغائية [1] وهو الله ليوصله سبحانه وتعالى الى مصيره المطلوب من جنة أو جهنم قد بناها هذا الإنسان بيديه في حياته الدنيا، وكل ذلك موكل بيده سبحانه وتعالى، وهي يقينا من شأنه تعالى ولا يشاركه فيه أحد: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [سورة القصص: آية ٥٦].؟

لقد رسم الله سبحانه وتعالى للإنسان مسارا إنْ أراد أنْ ينتقل تلك الانتقالة فإنّه سيستكمل فيها صعوده الصحيح الى مصيره المحتوم تجسيدا للآية السابقة المحدِّدة للمنطلق

(١) تشتمل (إلى) على عدة معانٍ، وأهمها الآتي: انتهاء الغاية المكانية، ومثاله قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى﴾ [سورة الإسراء: آية ١]، وانتهاء الغاية الزمانية، مثل قوله تعالى: ﴿أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾ [سورة البقرة: آية ١٨٧]، والمعيّة: كقوله تعالى: ﴿قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾ [سورة آل عمران: آية ٥٢]، والتبيين: كقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ [سورة يوسف: آية ٣٣]. وإلى من الحروف الجارّة وتدلّ إذن على انتهاء الغاية زمانا أو مكانا، ظاهرا أو معنى، موضوعا أو حكما.

والغاية: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّـآ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [سورة القرة: آية ١٥٦]، فقال سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلَاقِيهِ﴾ [سورة الانشقاق: آية ٦]، (أيها الانسان) وهي (الإنّا) في آية الرجوع، حيث إنّك في أمرك هذا بشدة ومشقة إلى أنْ تلقى جزاء عملك من ربك، فأنت لا تخلو في الدنيا من مشقة، فلا تعمل لها، واعمل لغيرها فيما تصير به إلى الراحة من الكدح [١]. لقد اجتمعت كل أفعال الحركة في اللغة في فعل كدح فهو: السعي والإرادة، والإدراك والكدّ ، والجهد والسعي وهو حضور الوجدان، والبذل، والعطاء، وغيرها.

والانسان على هذا الحال ﴿فَمُلَاقِيهِ﴾ لما له تفخيم لشأن الأمر الذي يلقى من جهته، فجعل لذلك لقاء جزائه، لقائه؛ وهذا من المعاني العجيبة والحكمة البالغة والهاء في ﴿فَمُلَاقِيهِ﴾ يحتمل أمرين: ((أنْ تكون كناية عن الله، وتقديره فملاقي ربك أي تلاقى جزاء ربك، ويحتمل أن تكون كناية عن الكدح، وتقديره فملاقي كدحك الذي هو عملك)) [٢]. فكن كادحا باستمرار طوال حياتك لا تفتر وتهن ، وتذبل وتخبو.

كما أنّ في الكدح تكمن عناصر البناء وإنْ شابها ضعف، وفتور، وتغافل، وهنّات، وهفوات لكن لا يجب أنْ يتحول هذا الكدح من الدنيا الى الدنيا ، وعندئذ سيتغير مسار الحركة الانتقالية وغايتها الأخروية.

فالكادحون هنا على صنفين من الناس:

الصنف الأول:

هو من كانت الـ(إنّا) فيه حيث تجد صاحبه إلهيٌّ بمشروعه، وغاياته، وأهدافه، فتكون (الإنيّة) فيه قوية، صلبة، متينة، صارمة، شديدة، وصلدة، فهذا يحيى عليه السلام: ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ﴾ [سورة مريم: آية ١٢]، كيف له أنْ ينفّذ مشروعه باندفاع وثقة عالية بالنفس إنْ لم يكن يمثل هو المشروع الإلهي ومنقادا بكلّه له، وهذا ابراهيم عليه السلام وقف أمام جموع الناس المستهزئين والحانقين ومن الجلاوزة المتملقين للطاغوت ؛ ليقف بكل جرأة وشجاعة

(١) الكدح: هو جهد في تعب مع استمرار. والكدّ: فيه شدّة. والكده: فيه تأثير. وبينها اشتقاق اكبر. يقال: كدحه: إذا جعله متعلّقا لجهده وأتعب فيه، ولازم هذا المعنى هو التأثير فيه. وكدح اليه: إذا اجتهد وأتعب نفسه في طريق الوصول اليه، فهو كادح، راجع: التحقيق في كلمات القرآن الكريم، حسن مصطفوي، ج١٠، ص ٢٩.

(٢) التبيان في تفسير القرآن، الشيخ الطوسي، احياء التراث العربي، بيروت، ج١٠، ص ٣٠٩.

رادّا كيدهم الى نحورهم محاججا إياهم لينفّذ مشروعه الإلهي قائلا وبكل شجاعة ومتحديا مشروعهم الباطل: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَـٰذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ﴾ [سورة الأنبياء: آية ٦٣]، وموسى ﷺ كيف وقف أمام أعتى طاغوت؛ وقف بصدر مفتوح ورأس مرفوع وصوت عال: ﴿يِفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [سورة الأعراف: آية ١٠٤]، وهذا نبينا عليه الصلاة والسلام كيف جسّد تلك القوة في الـ(إنّا)، وهو الذائب بالمشروع الإلهي: ﴿بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [سورة المائدة: آية ٦٧]. وأنطلق بقوة وعزيمة لأداء مشروعه الإلهي. وهذا علي ﷺ مثّل تلك (الإنيّة) بمشروعه بإرادة صلبه فاستفرغ كل تلك القوى الشعورية والإدراكية ، والجسمانية والإيمانية بتنفيذ تلك الضربة الحاسمة [١] على رأس الشرك لينهض بالمشروع الرباني، فما كان تنفيذه ﷺ تلك الضربة لقوة عضلاته، وإنْ كانت كذلك، ولكن كان لقوة العزيمة وقوة الإيمان، فعمرو بن عبد ودّ العامري كان كذلك قويا وشجاعا وفارسا، ولا يقل قوة جسمانية، وهو المحارب المعروف، لكن رسول الله ﷺ لخص لنا تلك المبارزة بقوله: ((برز الإيمان كله إلى الشرك كله)) [٢]. فإنيّة علي ﷺ ليس كإنيّة عمر بن عبد ودّ.

فالكدح الى الغاية إذن؛ ليس من أدواته المادة فحسب؛ بل هو حمل المشروع، والعمل لأجل تنفيذه بكل إرادة. فالكدح يستبطن الوعي، والبصيرة، والتنفيذ، والإصرار على ديمومة المشروع، واستمراره . فهذه أمُّ وهب زوجة لعبد اللهَّ بن عمير الكلبي تُحدّث ابنها وهي تمسح على رأس زوجها المقتول بأرض الطف، وهي المفجوعة بزوجها، ولكنها المدركة لبرنامجها فتقول: ((فداك أبي وأمّي قاتل دون الطيّبين ذريّة محمّد ﷺ)) [٣]، فالجانب المادي وحده لا يعني شيئا بمسألة العروج نحو الكمال. سنتحدث عن هذا الجانب في الصنف الثاني.

إلاّ أنّه قد يلازم هذا المعراج نحو التكامل نقاط ضعف، وهي ليست من قبل التهاون والتراخي، بل قد تكون عوارض طبيعية تبطّيء من سرعة الحركة الانتقالية نحو التكامل؛

(١) قال رسول الله ﷺ: «لضربة عليّ يوم الخندق أفضل من عبادة الثقلين»، راجع: الفصول المهمة في معرفة الائمة، على بن محمد بن أحمد المالكي المكي، دار الحديث، ١٣٧٩، ج ١، ص ٣٢٩.
(٢) علي امام البررة، ابو القاسم الموسوي الخوئي، دار الهدى، ج٢، ص ١٦ .
(٣) بلاغ عاشوراء، جواد محدثي، ج١، ص ٢٤٠.

ولا أقول تدعو الى التسافل لا أبدا ؛ ولكن أقول أنّ هذه الهنّات تكون حافزا، ومنطلقا لصاحب المشروع الإلهي وأنْ تكون منطلقا آخر لاستكمال مشروعه. تماما كالذي يتعرض الى غرق في نهر؛ فإنّه يتباطأ بحركته ليهوى الى قعر النهر ليلقى مصيره المحتوم، ولكن يبقى مشروعه وهدفه الأساسين حاضرين في وجدانه وهو النجاة مما هو فيه، فحالما تمس قدمه قعر النهر، وهو في تلك الحال في أوهن حالات ضعفه، إلاّ ويستفيد من تلك الركلة في الاندفاع للارتقاء وليس للاستسلام، ألا ترى معي نبي الله أيوب كيف فعل به مرضه وهو عارض طبيعي ، إلاّ أنّه لم يؤخره عن مشروعه الإلهي، وهو في أوهن حال، وما أصابه من سوء الحال في بدنه وأهله قال راجيا ربه: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ [سورة ص: آية ٤١]، فلم ينس المشروع، والهدف، وإنْ قُيدت حركته فالتجأ الى غايته الى ربه لينهض مستكملا كدحه، وجاء الرد سريعا: ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَـٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ [سورة ص: آية ٤٢]، فوجده الله تعالى رجّاعا إليه ومنقطعا اليه: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [سورة ص: آية ٤٤].

وهذا يونس بن متى عليه السلام كان في لحظات العسرة، والظلمات تحجبه عن كل شيء لعارض أعاقه عن كدحه فلم ييأس، ولم يهن، وكان يعيش المشروع الإلهي بكل كيانه، ووجدانه أندفع من نقطة الضعف تلك ليقول بأعلى صوته، ويزفرها كلمة يضجّ بها لما يحمل من عنفوان الكدح نحو الرقيّ: ﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَاتِ أَن لاَّ إِلَـٰهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّالِمِينَ﴾ [سورة الأنبياء: آية ٨٧].

الصنف الثاني :

هذا الصنف الذي يتخيل أنّ (الإنيّة) في الآية ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّـآ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ في كدحه كلها متمثلة في ذاته المادية والجسمانية ، وجبروته وطغيانه ، أو لعلمه ومعرفته ظنا منه أنّه سينتقل من حال الى حال وهو غافل أنّه ينتقل من سعادة الى شقاء، ويتسافل بعدما كان ذو سجية نقية، وفطرة سليمة فيتثاقل الى الأرض مرة بعد مرة ويتردى هاويا الى الحضيض زعما منه أنّه يعلو ويكبر فتنتفخ شخصية . ومراده ، ومبتغاه من وراء كل ذلك . ظانّاً أنّه بوجوده قد ملء الكون، وبأنّه هو الأعلى وهو الأكبر وهو الأقدر. هذا فرعون وقف يوما مغرورا فنادى بين جيوشه والمستضعفين من شعبه متبخترا قائلا: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ ٱلأَعْلَىٰ﴾

[سورة النازعات:آية ٢٤]، متصورا أنّه بامتلاكه الأطيان ورقاب الناس يتحقق له الكمال[1]، فمعاصره قارون لم يكن له سلطان وجيش، ولكنه جمع ثروة كانت تموّل حكومة فرعون إلا أنّه سرعان ما تساقط بغروره الى الأرض، ولم يستطع من النهوض بنفسه نحو التكامل. فكان كدحه معكوسا نحو الأرض وليس نحو السمو ؛ ولذا فقد بغى كثيرا: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِٱلْعُصْبَةِ أُوْلِي ٱلْقُوَّةِ﴾ [سورة القصص: آية ٧٦]، فكانت انتقالته هذه قد دفنته هو وعمله الى حيث كان يكدح: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ ٱلأَرْضَ﴾ [سورة القصص: آية ٨١].

هؤلاء المتساقطون، والمتثاقلون الى الأرض: ﴿اثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلأَرْضِ﴾ [سورة التوبة: آية ٣٨] يظنون –بمقدار ما– خيرا بأنفسهم، وماديّاتهم، ومعرفتهم على أنّها هي الوسيلة للكمال لكنهم مخطئون ، فالمادة وما يعوّلون عليه من أمور اخرى لا تعني كثيرا نحو العروج الى الكمال، فالسامري انحرف كدحه ليكون سلبيا . كان رجلا أنانيا منحرفا وذكيا في الوقت نفسه، حيث استطاع أنْ يستغل نقاط ضعف بني إسرائيل وأنْ يوجد وبجرأة ومهارة خاصتين. تلك الفتنة العظيمة التي سببت ميل الأغلبية الساحقة إلى عبادة الأصنام. مثل هذه النماذج وغيره كثير مهما بلغت قوتهم تلك، فمادة الكون أقوى منهم بالمفهوم المادي. فيحسبون أنّ بركلة أرجلهم سيخرقون الأرض وبكبريائهم سيطولون شواهق الجبال فمهلا مهلا: ﴿وَلاَ تَمْشِ فِي ٱلأَرْضِ مَرَحاً إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولاً﴾ [سورة الإسراء: آية ٣٧].

وهنا يبرز السؤال التالي: لماذا ينحرف كثير من المؤمنين بعد ايمانهم؟ أمثال بلعم بن باعوراء[2] ، والسامري والزبير ابن العوام؟! للإجابة عليه يمكن تلخيص ذلك للأمور التالية:

(١) ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَـٰذِهِ ٱلأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِيۤ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ﴾ [سورة الزخرف: آية ٥١]

(٢) كان رجلا على دين موسى ، وكان في المدينة التي قصدها موسى، وكانوا كفارا. وأنه أُعطي بلعم ابن باعوراء الاسم الأعظم، وكان يدعو به فيستجيب له فمال إلى فرعون فلما مر فرعون في طلب موسى وأصحابه قال فرعون لبلعم: ادع الله على موسى وأصحابه ليحبسه علينا. فانحرف الرجل. قال تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَـٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى ٱلأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾ [سورة الأعراف: آية ١٧٦]

أولا: تلاحق الفتن والابتلاءات مع عدم التحصين الكافي أمامه ما يؤديان للانحراف في مسيرة البشر وقد ينهار أمام بعضها. ومن هذه الفتن، فتنة حب الرئاسة.

ثانيا: المبالغة بحسن الظن بالنفس غالبا ما تسبب الانحراف.

ثالثا: طول الأمل، والحرص على الدنيا من الأسباب الرئيسية للانحراف.

لنرى الآن كيف تصرف الصنفان: الكادحين بالإيجاب والكادحين بالسلب. ولنأخذ مثالان هنا.

المثال الأول:

لّما خرج قارون متبخترا بزينته، وعرشه، وجواريه، وخدمه، وحشمه فتطلّع لهذا المشهد صنفان من الناس،

الصنف الأول: منهم وممن هم على شاكلته تمنوا أنْ ينالوا مثل مما هو عليه. فما كان عندهم وضوح فيما هو هدفهم من الحياة، وما المطلوب من السعي فيها، وما يريدون لغايتهم الأخروية فجعلوا الحياة الدنيا الغاية المطلوبة في مساعيهم ليس لهم وراءها غاية. فهم على جهل من الآخرة وما أعدّ الله لعباده فيها من الثواب: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَاةَ ٱلدُّنْيَا يٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [سورة القصص: آية ٧٩].

والصنف الثاني: من هؤلاء ممن أمنوا بأنّ هدفهم وغايتهم هي رجاء بلوغ مرتبتهم التي يسعون للحصول عليها، هم المؤمنون وأهل العلم بالله، ومرادهم أنّ ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً مما أُوتي قارون: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً وَلاَ يُلَقَّاهَآ إِلاَّ ٱلصَّابِرُونَ﴾ [سورة القصص: آية ٨٠]

المثال الثاني:

إنّ ما جرى من طالوت في اختبار الذين خرجوا معه للجهاد، فقد انقسموا باختبار اغتراف الغرفة من الماء ثلاثة مجاميع، وكان قد سبقهم جزء رابع ممن فشلوا من اللحوق به ابتداء لركونهم الى الأرض ، واهتمامهم بحياتهم الدنيوية.

تمثل الابتلاء بأنْ صادف الجيش الخارج للجهاد في سبيل الله بعد قطعهم صحراء جافة،

وتعرضهم للعطش الشديد أنْ رأوا نهرا يجري فيه ماء صاف عذب وبارد، فأمرهم طالوت ألا يشربوا منه إنْ كانوا عازمين على السعي معه: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي﴾ [سورة البقرة: آية ٢٤٩]، وهؤلاء لم يتمثل عندهم مطلوب الكدح، وغاياته ففشلوا، وتراجعوا فشربوا من الماء. وما كانت عندهم بصيرة واضحة لمطلوب كدحهم في الدنيا، وما عندهم همة للعمل له. والمجموعتان الأخريان، مع أنّهما نجحتا بعدم شرب الماء، ولكن أصبح الابتلاء الثاني باغتراف غرفة واحدة فقط: ﴿وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ﴾ [سورة البقرة: آية ٢٤٩]، وهنا تتضح تماما أنّ من يحمل المشروع الإلهي عليه أنْ يكون دوره تماما كطالوت القائد الإلهي وليس يتبعه لأسقاط الواجب أو لنيل الثواب والجزاء، ومن هو لم يصل لهذه المرحلة بعد لضعف بصيرته ولقلة معرفته يكون بعيدا عن المشروع الرباني. فكانت المجموعة الإلهية وهي القليلة هي الحاملة للمشروع الإلهي العاملة له الكادحة بقوة لأجله. تمثلت وانصاعت وأطاعت ولم تطعم الماء ولم تذقه: ﴿وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي﴾، وهؤلاء حملة المشروع الإلهي عند مجابهة العدو وقفوا أشداء أقوياء ذوو عزيمة وبأس شديد صدورهم مشحونة بالإيمان رجاء بلوغ الغاية، والمنى بتحقيق الهدف: ﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاَقُوا اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [سورة البقرة: آية ٢٤٩]، وأمّا الذين كانوا ضعفاء البصيرة ولم يحملوا المشروع الإلهي عن جدارة، والذين قد اغترفوا غرفة من الماء بيدهم هذه المجموعة الخائفة المترددة، وإنْ نجحوا بالابتلاء الأول لكنهم فشلوا بالابتلاء الثاني إذ أنّهم لم يحملوا المشروع الإلهي عقيدة وإيمانا وعملا، ولم يسعوا جادين بالكدح للارتقاء، والسمو نحو الكمال كما هي المجموعة القليلة. هؤلاء كان موقفهم ينسجم تماما مع سعيهم المتواني والضعيف، ﴿قَالُوا لاَ طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنودِهِ﴾ [سورة البقرة: آية ٢٤٩]، فكانوا ظانين بلقاء الله تعالى.

وقد فعل الحسين عليه السلام كما فعل طالوت استجابة للأمر الإلهي في أنْ يختبر رفقائه الذين خرجوا معه من مكة متوجهين الى العراق. وكانت على أقل تقدير اختبارين لهم جميعا ليفرز الرساليون عن غيرهم.

الفئة القليلة صاحبة المشروع الإلهي

لنعبّر بـ(الرساليين) عن هذه الفئة القليلة التي تحمل هم الرسالة، والنهوض بها عملا وتوعية بين صفوف الجماهير. و((الرسالي هو الانسان الذي تشغل حياته مساحة كبيرة أو صغيرة من حياة الآخرين، ولكن لا من منطلق ذاتي ونفعي، وإنّما من منطلق غيري وتضحوي يجعل حياته مشاعا، يعود بالنفع والخير على الآخرين، الذين لا يرجو منهم نفعا، ولا جزاء ولا شكورا. إنّ حياته ذات أبعاد، وأبعادها هي الآخرون. هذا الانسان، هو إنسان صاحب قضية، فحياته ذات بعد معنوي تشكله القضية، وحياته غنية بمقدار ما في قضيته من غنى، ونبيلة بمقدار ما في قضيته من صوابية وصدق، وهو قادر على أنْ يكون صالحا بمقدار ما يكون منسجما مع قضيته العادلة، ورسالي بمقدار ما يعطي من حياته لهذه القضية، وهو إنسان يمكن أن يكون شهيدا)) [1]، هم الذين قال الله عز وجل فيهم: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلاَ يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَٰئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[2].

وتتميز شخصية الرساليين بالمزايا التالية:

١ ـ التفاني في حب الله ورسوله .

٢ ـ ثبات نفسه على طاعة رسول الله والقيادة الالهية .

٣ ـ الولاء الكامل .

٤ ـ الارادة الايمانية العالية .

٥ ـ يكون على درجة من الأيمان .

٦ ـ الجرأة والشجاعة .

٧ ـ الوعي والبصيرة .

(١) أنصار الحسين (ع) دراسة عن شهداء ثورة الحسين الرجال والدلالات محمد مهدي شمس الدين الدار الإسلامية، ص ٧

(٢) سورة الحشر: آية ٩

٨ ـ يمتازون بمنزلة علمية جديرة بالاهتمام .

٩ ـ الذوبان في قضيتهم وهدفهم .

١٠ ـ القدوة والعبرةً .

وخلاصة القول في هذا المجال : إنّ الناس قد انقسموا مع القادة والمصلحين إلى أتباع ونفور بالفكر ابتداء . ثم انقسم الأتباع على بعضهم كما رأينا الى ثلاثة أصناف : وهم المصلحيون الذين يركضون وراء مصالحهم الدنيوية، والهامشيون الذين ينتظرون حصد النتائج وشغلوا أنفسهم بالتنظير دون العمل ، أمّا الرساليون فهم الفئة القليلة، وهم الفاعلون والعاملون الذين يحملون أرواحهم على أكفهم من أجل إتمام الرسالة بأكمل وجه.

إنّ السنن الإلهية في حتمية الأجل للأمم، وحتمية انتصار الحقّ وظهوره على الباطل، وقانون الاستبدال، وحتمية البلاء، والترابط، والملازمة بين العدل الاجتماعي، والرفاه الاقتصادي، والعاقبة للمتقين، والأرض يرثها الصالحون والمستضعفون، وقيام دولة الحق، والعدل هي سنن التاريخ وتعدّ الفكرة فتحاً مبيناً للعقل البشري في مستوى الوعي التاريخي يستطيع بها أنْ يحلّ كثيرا من العقد الفكرية ، والآراء القلقة، ومنها الفكرة المهدوية أو حتمية انتهاء النظم الاجتماعية، والسياسية، والاقتصادية، وكل مناحي حياة المجتمع، والانسان الى نظم ربانية يسودها العدل، ويسوسها قائد الهي فيخضع الناس إلى هذه النظم اختياريا فيسود العالم الرفاه على كل الأوجه.

وكما أنّ للتاريخ بداية فله نهاية، وأنّ بداية التاريخ – كما تؤمن النظرية الإسلامية – تجسّدت في خلق آدم وحواء عليهما السلام كممثّلين للجنس الإنساني، وهما محور الحركة التأريخية. أمّا الغاية والنهاية –كما تؤمن النظرية الإسلامية– فهي قيام مجتمع الصالحين الذي ينجح نجاحاً كاملاً في تحقيق العبودية الكاملة، وتجسيد القيم الإلهية الخالدة. وما بين البداية والنهاية فهناك مسار تاريخي طويل ومعاناة عميقة وكدح متصاعد: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾ [سورة الانشقاق: آية ٦] يبرز منه بعد غربلة وتمحيص أناس تشرّبوا بالسنن الإلهية فهماً وعلماً، وعملوا بها لإنجاح المشروع الإلهي بتحقيق الغاية في تكوين المجتمع الصالح.

هؤلاء الرساليون الكادحون اتبعوا قادة ربانيين سبقوهم قد عملوا بالسنن الإلهية، فانقادوا لهم طواعية ومحبة، وأكملوا مشروعهم الإلهي، فزادهم صلابة وإصرارا على المضيّ في تحقيق الغاية العظمى. وتعدّ هذه الفترة وهي فترة الإعداد للقيام الأكبر (قيام دولة المهدي عليه الاسلام) من أخطر الفترات التاريخية وأهمها . وتعدّ حسب النظرية الاسلامية بناء نهاية التاريخ.

وهؤلاء المنتظرون العاملون الممهدون لإقامة دولة الحق، والصابرون والمتجلّدون والمقتدون بالمهدي ﷺ وشركاؤه بالعمل والهدف من قبل قيامه ومعرفته فهم الأكرم على رسول الله ﷺ، وهم رفقاؤه. فقَالَ رَسُولُ اللهِّ ﷺ: ((طُوبَى لِمَنْ أَدْرَكَ قَائِمَ أَهْلِ بَيْتِي وَهُوَ مُقْتَدٍ بِهِ قَبْلَ قِيَامِهِ، يَتَوَلَّى وَلِيَّهُ، وَيَتَبَرَّأُ مِنْ عَدُوِّهِ، وَيَتَوَلَّى الْأَئِمَّةَ الْهَادِيَةَ مِنْ قَبْلِهِ، أُولَئِكَ رُفَقَائِي وَذُو وُدِّي وَمَوَدَّتِي، وَأَكْرَمُ أُمَّتِي عَلَيَّ)) [1].

فهم المنتظرون العاملون الذين جعلوا قيام دولة المهدي ﷺ نصب أعينهم ، وعملوا بيقين وثقة جاهدين في تحقيقها وآمنوا بسواد في بياض كما قَالَ النَّبِيُّ ﷺ وسلم لِعَلِيٍّ عليه السلام: ((يَا عَلِيُّ، وَاعْلَمْ أَنَّ أَعْظَمَ النَّاسِ يَقِيناً قَوْمٌ يَكُونُونَ فِي آخِرِ الزَّمَانِ لَمْ يَلْحَقُوا النَّبِيَّ وَحُجِبَ عَنْهُمُ الْحُجَّةُ، فَآمَنُوا بِسَوَادٍ فِي بَيَاضٍ)) [2]، وبقيام دول العدل تكتمل حركة التاريخ وبانتهائها يكتمل قوس المُلك بتحقق الآية الشريفة: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [سورة القصص: آية ٨٨].

(١) بحار الانوار الجامعة لدُرر اخبار الائمة الاطهار، العلامة محمد باقر المجلسي (ت ١١١١ هـ)، ج ٥٢، ص ١٢٩

(٢) المصدر السابق، ج ٥٢، ص ١٢٥

المصادر و المراجع

١. الأصول من الكافي، ثقة الاسلام أبي جعفر محمد بن يعقوب بن إسحاق الكليني الرازي (ت ٣٢٩ هـ)، ط ٣، ١٣٨٨، دار الكتب الاسلامية، مرتضى آخوندي، طهران.

٢. أنصار الحسين عليه السلام دراسة عن شهداء ثورة الحسين الرجال والدلالات محمد مهدي شمس الدين، الدار الإسلامية.

٣. بحار الانوار الجامعة لدُرر اخبار الائمة الاطهار، العلامة محمد باقر المجلسي (ت ١١١١ هـ).

٤. بلاغ عاشوراء، جواد محدثي.

٥. التبيان في تفسير القرآن، الشيخ الطوسي، احياء التراث العربي، بيروت.

٦. التحقيق في كلمات القرآن الكريم، الشيخ حسن مصطفوي .

٧. التعليقة على اختيار معرفة الرّجال، محمّد باقر الحسيني الاسترآبادي، مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، قم، ١٤٠٤هـ.

٨. التفسير الصافي، الفيض الكاشاني (ت ١٠٩١هـ)، مؤسسة الهادي، قم، ١٤١٦ هـ.

٩. الدر المنثور، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (ت: ٩١١هـ)، دار الفكر، بيروت.

١٠. الدرّ المنظوم من كلام المعصوم، علي بن محمّد بن الحسن بن زين الدين العاملي، المعروف بالشيخ علي الكبير، (ت ١١٠٣هـ).

١١. شرح الأسماء الحسنى، حاج ملا هادي السبزواري (ت ١٢٨٩هـ)، منشورات مكتبة بصيرتي، قم.

١٢. الصورة القرآنية لانهيار الموجودات، الدكتور أحمد الصفار، المصباح، مجلة علمية فصلية محكمة، العتبة الحسينية المقدسة، العدد ٣٨، السنة العاشرة، صيف ٢٠١٩، ص١٥.

١٣. علي امام البررة، الإمام ابو القاسم الموسوي الخوئي، دار الهدى.

١٤. الفصول المهمة في معرفة الائمة، على بن محمد بن أحمد المالكي المكي، دار الحديث.

١٥. الفكر الخالد في بيان العقائد، جعفر السبحاني، مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام.

١٦. اللفظ القرآني بين القوة والفعل، الدكتور أحمد الصفار، مجلة صدى القرآن، العتبة الحسينية، العدد ١٤، السنة الرابعة، ٢٠١٩، ص ١٠٣-١٦٥.

١٧. الميزان في تفسير القرآن، السيد محمد حسين الطباطبائي.

١٨. الوصيّة: بحث في تحقيق ألفاظ حديث الثقلين، بدر الدين بن الطيّب كسوبة، النجف الأشرف.

ألا بذكر الله تطمئن القلوب